صلات مغربية ثقافية وروحية
مع الأمير عبد القادر ونخبة من المهاجرين

ذ. محمد المنوني (المغرب)
أستاذ بكلية الآداب بالرباط

عرف مغرب القرن التاسع عشر هجرة جزائرية ضخمة، وكان باعثها اعلان المهاجرين بالرفض لمأساة الاحتلال الظالم. ثم الفرار بدينهم من قوانين الكفر الى احكام الاسلام.

وهكذا، قصد المغرب مجموعات كثيفة من سكان غرب الجزائر : علماء وادباء وحرفيين واطرا ادارية، وقد استقر معضمهم بفاس ووجدة، بينما انتقل اخرون الى مدن تازا ومكناس وطنجة وتطوان ومراكش وسواها، فضلا عن الذين نزلوا في بعض الارياف المغربية (1).

وبهذه الجهات كلها صادفوا ترحيبا جما من المهتمين : قاعدة وقمة. وكان من تزكية احد علماء فاس لهجرتهم فتوى الفقيه محمد بن المدني كنون بالتحذير من الاقامة تحت ذمة الكفر للقادرين على الانتقال (2).

ومن مؤشرات هذا الترحيب في أوساط النخبة المثقفة. اهتمام المؤلفات المغربية الاخبارية بتبريز اسماء العلماء المهاجرين. فياتي التنويه بهم الى جانب زملائهم المغاربة، في مجموعات التراجم لمؤلفين معاصرين لهم : عبد الكبير الفاسي (3)، والفاطمي الصقلي (4)، وجعفر الكتاني (5)، وولده محمد بن جعفر (6).

فضلا عن «فهارس الاشياخ»، من وضع المغاربة الذين درسوا على أساتذة من الوافدين. ومنهم الفقهاء : احمد بن العربي ابن حسون الوزاني البلدة (7)، ثم محمد بن المعطي السرغيني المراكشي (8)، ومن فاس : جعفر الكتاني (9)، وأحمد ابن الخياط (10).

وانتقلت هذه المبادرات الى مدونة الانساب المغربية : «الدرر البهية» لادريس الفضيلي، فيلم بأنساب بعض الوافدين من المهاجرين (11).

وعلى مستوى، اخر، يشير عبد السلام اللجائي الى الفقيه الكبير علي التسولي، مؤلف الاجوبة ـ المعروفة ـ عن اسئلة الامير عبد القادر، ويضيف قائلا : «وكان يواسي اهل تلمسان، الذين جاءوا فارين منها بعد الاستيلاء عليها».

وفي هذا الاتجاه، نبرز فقرة سجلها السليماني (13)، فيقول عن النازلين بفاس : «.. فيمموا مدينة فاس المحمية، ذات الخلافة العلوية، وزال عنهم بدخولها التنكد، وحياهم الدهر بجبين طلق وعيش رغد، فأكرم اهل البيوتات نزلهم، وقدروا قدرهم..».

ومن جهة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام، حظي المهاجرون في كنفه بكامل الرعاية، وفي هذا الاطار صار علماؤهم في الاعتبار، على قدم المساواة مع زملائهم بفاس وغيرها. هذا الى انه رشح افرادا منهم لمنصب القضاء، بطنجة ومراكش ووجدة، فضلا عن منحه لاسر منهم ظهائر تنويه واحترام، وهو عمل استمر مع ايام السلاطين محمد الرابع والحسن الاول والملوك من ابنائه.

وفي هذا الاتجاه كان من تقدير المولى عبد الرحمن، لبعض الفقهاء التلمسانيين بعد وفاتهم، ان حدد باشارته الخاصة، مدفن اثنين منهم في مكان معين (14)، بعد ما كان عموم الجزائريين يدفنون بالجبانة المعروفة لهم، خارج باب الفتوح من مدينة فاس.

وتجاوب المهاجرون مع مشاعر الترحيب الصادرة من القمة والقاعدة، ومن ذلك اعلانهم لفرنسا بولائهم للمغرب. ضدا على محاولتها الرامية لحمايتهم بدعوى انهم من رعيتها. ودحضا لذلك، بادر معظم المهاجرين بفاس وأكثريتهم من سكانها، الى كتابة وثيقة تعبر عن مغربيتهم، وذيلوها ب 546 توقيعا، وكان تاريخها مهل ربيع النبوي 1884/1312 (15).

والان بعد هذا المدخل نشير الى ان الوافدين من العلماء، عاشوا بالمغرب كبعثة تعليمية مقيمة، وذلك ما نتبينه من النماذج التالية. فتبرز الاسماء والممارسات، واثر ذلك في الاوساط المتعلمة.

1 ـ وسياتي في البداية اسم ابن سعد : محمد بن محمد بن الحاج اليبدري التلمساني، ت 1264 / «1848»، فينوه الكتاني (16) بدروسه قائلا : «وكان له بها (فاس) مجالس حفيلة. انتفع به فيها جماعة من نجباء الوقت وعلمائه».

2 ـ المجاوي : محمد بن عبد القادر بن عبد الرحمن الجليلي التلمساني،

ت 1267 / «1851»، كتب له الحفناوي [17] ترجمة موسعة، وجاء فيها : «تولى خطة التدريس بجامع القوريين. واخذ عنه علماء عارفون، كالشيخ كنون الشهير، والشيخ الحاج صالح الشاوي (الصواب التادلي)، والشيخ الحاج محمد بن عبد الواحد ابن سودة، والشيخ محمد العلوي قاضي فاس. والشيخ جعفر الكتاني. وغيرهم، ثم ولي قضاء طنجة.

وهو والد الشيخ عبد القادر المجاوي. الاستاذ في القسم العالي بالمدرسة الثعالبية بالجزائر. بعد ما كان تعلم بتلمسان وطنجة وتطوان، وأكمل دراسته بالقرويين [18].

3 ـ الحاج الداودي اسما بن العربي الحسني التلمساني، ت 1271 / «1854»، ذكر عنه في «الشرب المحتضر» [19] انه اقرأ بفاس علوما جمة، وانتفع به خلق كثير.

4 ـ الراشدي : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الحشمي الحسني، ت 1272 / «1856»، اقرأ بفاس صحيح الامام البخاري، ثم بمراكش لما ولي قضاءها، وبها اخذ عنه محمد بن المعطي السرغيني، فيذكر عنه : «من العلماء القادمين على فاس، ايام تغلب العدو على الجزائر وما والاها، ثم انتقل الى مراكش في حدود سنة 1268 هـ وولي قضاءها، وكان آية في الذكاء ومعرفة الفقه والفروع، وأخذ من العربية والحديث بأوفر نصيب، وختم المختصر الخليلي بمراكش في مشهد حفيل حضره الجم الغفير [20].

5 ـ الغرايسي : محمد بن الخضر المهاجي الحسني المعسكري، ت 1292 / «1875»، وكان غالب تدريسه في جامع الرصيف بفاس. وهو عمدة مولاي ادريس بن عبد الهادي العلوي، واخذ عنه ايضا : الشيخان عبد السلام اللجائي وعبد الرحمن ابن القرشي [21].

6 ـ نشير الان ـ الى الحاج بن عبو بن المصطفى المشرفي، شيخ الامير عبد القادر وقاضيه، ثم هاجر الى فاس بعد نهاية الاحتلال، وبها كانت وفاته، ذكره الحاج العربي المشرفي [22]، دون ان يشير لتاريخ وفاته، ولا الى نشاطه التعليمي بمهجره، غير أنه اشاد بحفظه للفقه المالكي، على مستوى المختصر الخليلي وشروحه.

ونصل ـ بعد هذا ـ من فاس الى وجدة، فيقدم الحاج العربي المشرفي [23]،

الفقهاء المهاجرين اليها في ستة اسماء، اربعة منهم اضطلعوا ـ في المدينة المنوه بها ـ بتدريس النحو والمختصر الخليلي.

7 ـ وأولهم : من يقدمه باسم السيد جلول بن رورو ـ براءين مضمومتين ـ المستغانمي، دأب على ختم مختصر الشيخ خليل كل عام، ثم يضيف المشرفي : «واشتهر في ذلك المصر، وشدت اليه طلبة العلم الرحلة من قرى الريف البحري وجباله، وتخرج عليه خلق كثير».

8 ـ احمد بن عيسى ابن عم سابقه، ونظيره في نشاطه التعليمي : مادة وكتابا ومدة الاقراء ووفرة المتعلمين.

9 . 10 ـ الثالث والرابع من لائحة وجدة : كانا في طبقة من قبلهما، وهما : الحبيب بن المصطفى المعسكري، وعبد الله الشهير بالسيد عبو بن البشير المعسكري.

11 ـ الخامس : هو البشير والد الأخير، الفقيه الاستاذ المقرىء، وكان ـ حسب المشرفي ـ له اليد الطولى في التعليم.

12 ـ السادس والاخير من هذه اللائحة : المختار بن روكش قاضي وجدة الى ان توفي، وينوه به المشرفي قائلا : «كان عالما عاملا حيبيا ذا سخاء ومروءة، وله سياسة انفرد بها في الفصل بين العامة».

13 ـ ومن وجدة نسير الى مكناس، للقاء مسند المغرب الاوسط : بنعبد الله سقط : زين العابدين عبد القادر بن مصطفى بن عبد القادر بن عبد الله، المشرفي الغريسي الراشدي المعسكري، ورد على السلطان مولاي عبد الرحمن آخر مدة امارة الامير عبد القادر. وصار يحضر معه مجلس صحيح البخاري، ثم كانت وفاته بمكناس بعد 1270 / «53ـ1854»، ودفن بالقرب من مشهد الشيخ محمد بن عيسى، والغالب انه صادف اقامة طيبة في مهجره، وذلك ما يستنتج من قصيدة له يقول في مطلعها :

إن المليحة فاس لا يقاس بها ايوان كسرى ولا صرح لذي شرج [24]

ونتخلص ـ الان ـ الى عرض اربعة من المهاجرين الذين اضطلعوا بمهمة الارشاد على المستوى الشعبي، مع قيامهم بالتدريس

14 ـ بدءا من الفقيه ابن الهاشمي : محمد بن محمد بن الطاهر المراحي

المعسكري، ت 1301 / «1883»، يصف الشيخ جعفر الكتاني [25] نشاطه في الوعظ بفاس : «وكان فقيها مدرسا، له مجالس بجامع الديوان وبجامع سيبوس، وبزاوية سيدي احمد بن عبد الصادق، ويسرد كتب الوعظ تارة ويدرس اخرى. وكان غالب من يحضر مجلس العوام، وكانوا ينتفعون بقراءته غاية النفع، ويحصلون منها ما لا يحصلون من غيره من العلماء».

وفي تعبير السليماني [26] وهو يصف مجالسه : «فقد كانت مواعظه تلين الصخور، وتقصم من ذوي الزيغ والعناد الظهور، اصلح الله على يده طائفة من عوام اهل فاس، افرغ ـ رحمه الله ـ حسب مداركهم، فتهذب به خلق كثير، وتأدب بسببه جم غفير».

15 ـ العريبي ـ بالتصغير ـ بن الفقيه الداودي الحسني التلمساني. هاجر الى مدينة تازا، وتصدى بها للوعظ والتدريس [27].

16 ـ سعد بن الفقيه ابن سعد، اليبدري التلمساني نزيل تازا، وخطيب جامعها الاعظم ومدرسه [28].

17 ـ ولده مصطفى بن سعد، خلف والده في الخطابة والتدريس بجامع تازا [29].

والى هنا نذيل بلائحة لمؤلفات المهاجرين، التي تحتفظ الخزانة المغربية بمخطوطاتها، وياتي تصنيفها على اسماء ثلاثة من مؤلفيها.

انطلاقا من الفقيه محمد بن سعد، اول الاسماء السابقة في هذا العرض. وتتوفر الخزانة العامة بالرباط، على كناشة ـ بخطه ـ عامرة بالمعلومات، بينها تقييد كتبه في نسب اسرته.

خ . ع . ك 1284

18 ـ الثاني المشرفي : محمد العربي بن عبد القادر بن علي الحسني الغريسي المعسكري، ت 1895/1313. والقصد الى 13 من مؤلفاته :

أ ـ ابتداء من «ذخيرة الاواخر والاول فيما يتضمن من اخبار الاول». في سفرين، ثانيهما خ . ع . ك 2659 : بخط جزائري.

ب ـ «نزهة الابصار لذوي المعرفة والاستبصار، تنفي عن المتكاسل الوسن، في مناقب احمد بن محمد وولده الحسن».

ويشير عنوان الكتاب الى انه في موضوع المناقب، غير ان المؤلف لم

يتقيد بمضمون العنوان، واضاف له زيادات تاريخية جمة، بينها مجموعة ضخمة من التراجم القصيرة للمغاربة والمهاجرين، فضلا عن اخبار منوعة عن مغرب القرن 19 وعن الجزائر.

خ . ع . ك 579 : في مجلد من حجم كبير.
خ . س 5616 : في مجلد من نفس الحجم.

ج - «الحسام المشرفي..» ناقش فيه المؤرخ محمد بن احمد اكنسوس في نقط من تاريخه : «الجيش العرمرم..» واستطرد به اضافات تاريخية مهمة.

خ . ع . ك 1/2276

د - «رحلة شمال المغرب»، دون فيها مسار رحلة السلطان الحسن الاول لهذه المنطقة، عام 1306 - 1307 هـ

خ . س 2420 يتخللها بياض.
خ . ع 1347 : فيلم منها.

هـ - «رحلة الى نواحي فاس» : ارجوزة تشتمل على 168 بيتا، نظم فيها ما جريات رحلته الى اشراكة واولاد جامع وسلاس والجاية واولاد عيسى وسفيان وبني مالك.

خ . ع . ك 15/1264

و - «الرسالة في اهل البصبور الحثالة»، كتبها ضدا على اصحاب الحماية القنصلية.

في خزانة خاصة.

ز - «فتح المنان في شرح قصيدة ابن الونان»، وكانت قصيدة ابن الونان في مديح السلطان العلوي محمد الثالث.

خ . ع ج 629 : في مجلد.
خ . س 12427 : في سفرين.

ح - «اقول المطاعن في الطعن والطواعن»، صدره بمقدمته أوبئة ق 19 بالمغرب والجزائر.

خ . س 2054 : في سفر صغير

ط ـ «مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان».

خ . س 12082 : في سفر صغير يتخلله بتر

ي ـ ياقوتة النسب الوهاجة.

خ . ع . ك 7/270.

ك : «الفتح والتيسير في شرح قصيدة حوت من هم على قدم البشير النذير».

خ . س 5271 : في سفر صغير

ل ـ «كناشة».

خ . ع . ك 204

م ـ «كناشة» ثانية.

خ . ع . ك 471

وستكون هذه الكناشة اخر ما تسنى ـ الان ـ ذكره من اوضاع المنوه به المحفوظة بالمغرب، ومن محاسن مؤلفاته استطراداتها لمعلومات تاريخية، يهم كثير منها كلا من المغرب والجزائر، على ان القارىء لها يكون على حذر من لسان المؤلف وتسرعه في الاخبار، فضلا عن تناقضه حينا، وهي ملاحظات توخذ بعين الاعتبار، في اعمال المؤلف الاتي توا :

19 ـ السيد الحاج : محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي الحسني، ت 1915/1334، وهو مؤلف «الحلل البهية في ذكر ملوك الدولة العلوية» شرح فيه قصيدة محمد الغالي ابن سليمان في سلاطين الدولة العلوية.واضاف له تكملة ارخ فيها العصر الحسني وبعده لايام العزيز.

خ . ع . ك 1463.
خ . س 1020
خ . س 12489

ومن مؤلفاته المنشورة بالمغرب : «الدر المكنون في التعريف بشيخنا سيدي محمد كنون» : ترجمة موسعة للفقيه المجدد : محمد المدني كنون.

المطبعة الحجرية الفاسية دون تاريخ : 176 ص : اصلا وتقاريظ في حجم متوسط.

وقد بقي ـ بعد هذا ـ ان نختم هذا العرض بتبريز ملامح من العلاقات الروحية، التي ربطت بين الامير عبد القادر وثلاثة من شيوخ المغرب.

ـ ابتداء من الشيخ الحراق : محمد بن محمد بن عبد الواحد الحسني العلمي الموسوي نزيل تطوان، فكتب له الامير رسالة بتاريخ الثاني من جمادى سنة 1267، وفيها يخبره بأنباء المعارك الضارية، التي شبت بين المسلمين والاعداء دفاعا عن «تاقدامت»، حتى انتهت بانهزام المغيرين.

وقد جاءت افتتاحية الرسالة هكذا : «الفقيه الارضي، والخلاصة المرتضى، الشيخ الامام قدوة اهل الايمان والاسلام، شيخ الشيوخ سيدي محمد الحراق.. وبعد : فانا نعلم انك وجميع المومنين متهولون من امرنا مع الكفار، منتظرون ما يرد عيلكم من عندنا من الاخبار..

ثم كان اخر الرسالة : «... وما اصابنا من خير فببركتكم ودعائكم ورضاكم عنا. ولا تنسونا من صالح دعائكم[30].

ـ ويأتي بعد الحراق. اسم احد علماء فاس اللامعين : الشيخ عمر بن الطالب ابن سودة وقدر نوه به الامير عبد القادر في قصيدة مدحه بها[31].

ـ ثالثا : الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة المكرمة بها

ـ خلال حجة الامير ـ تلقى منه طريقة التصوف ولقنه شؤونها. ومن المؤكد ان بطل الجزائر، افاد من تربية استاذه في سلوكه الصوفي، وذلك ما تزخر به القصيدة المطولة التي اشاد فيها بمآثر الشيخ محمد الفاسي. حيث ورد نصها ـ كاملا ـ في «تحفة الزائر» [32].

الهوامش :

(1) كتب ميشو بللر احصاء للجزائريين المهاجرين الى المغرب، وتتبع مراكز سكناهم جهة فجهة، ثم نشر ذلك بعنوان «مسلمو الجزائر بالمغرب» : في مجلة المحفوظات المغربية، (Archives Marocaines) 1907.

(2) الفتوى منشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية 1301 هـ، بهامش تاليف نفس المؤلف : «التسلية والسلوان لمن ابتلي بالاذاية والبهتان» : ص 2. م 16 ـ 7. م 20.

(3) «تذكرة المحسنين في وفيات الاعيان وحوادث السنين»، خ.ح.ك 4/270.

(4) «ذكر من اشتهر امره وانتشر ممن بعد الستين من اهل القرن الثالث عشر»، خ.ع.ك 9/1264.

(5) «الشرب المحتضر..»، المطبعة الحجرية الفاسية 1309 هـ.

(6) «سلوة الانفاس..» نفس المطبعة 1316 هـ في ثلاثة اسفار.

(7) «زهرة الاس فيمن لقيته من الناس بوزان وفاس» خ.ع 829 . 830 : فيلم.

(8) «حديقة الازهار في ذكر معتمدي من الاخيار»، خ.ع.ك 1287.

(9) «اعلام ائمة الاعلام واساتيذها بما لنا من المرويات واسانيدها»، المطبعة الحجرية الفاسية 1322 هـ.

(10) «الفهرست الكبرى»، خ.ع.ك 1427 : اخر مجموع. خ.س 1182.

(11) المطبعة الحجرية الفاسية 2/154ـ155.

(12) «المفاخر العلية..» خ.س 460.

(13) «اللسان المعرب..»، مطبعة الامنية بالرباط 1391/1971 : ص 29

(14) «الشرب المحتضر» : مصدر سابق : عند ترجمة كل من ابن سعد والداودي، حيث سياتي ذكرهما.

(15) قدم للوثيقة ونشرها في مصورتها وبالحروف المطبعية : محمد المنوني، مجلة «دعوة الحق» : السنة 10. ع 2 ص 104 ـ 106، عام 1386/1966.

(16) «سلوة الانفاس» : مصدر سابق، 3/79.

(17) «تعريف الخلف برجال السلف»، مطبعة فونتانة بالجزائر 1327/1909 : 2/446.

(18) معجم اعلام الجزائر، نشر مؤسسة نويهض الثقافية ـ بيروت، الطبعة الثانية 1400/1980 : ص 286ـ287.

(19) مصدر سابق.

(20) «حديقة الازهار» : مصدر سابق.

(21) «المفاخر العلية» : مصدر سابق، مع بعض الوجادات.

(22) «ياقوتة النسب الوهاجة»، خ.ع.ك 7/270.

(23) «نزهة الابصار..» خ.ع.ك 579.

(24) «فهرس الفهارس..» للكتاني دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ص 577ـ578.
«اتحاف اعلام الناس..» لابن زيدان، المطبعة الوطنية بالرباط 1352/1933 : 5/352ـ353.

(25) «الشرب المحتضر» : مصدر سابق.

(26) اللسان المعرب» : مصدر سابق : ص 33.

(27) «نزهة الابصار» : مصدر سابق.

(28) نفس المصدر.

(29) من خط الشيخ محمد عبد الحي الكتاني.

(30) الرسالة من مصورات جائزة الحسن الثاني.

(31) وردت القصيدة بخط الفقيه محمد بن محمد بن علي ابن سودة (النحول) في كناشته، حيث كانت في «المكتبة الاحمدية بفاس».

(32) المطبعة التجارية بالاسكندرية 1903 : 2/137-141

ملاحظة :

ترد خلال النص والهوامش اشارات هذا توضيحها :

خ . ع . ك : قسم الكاف من الخزانة العامة بالرباط.

خ . ع . ج : قسم حرف الجيم من الخزانة العامة بالرباط.

خ . س : الخزامة الحسنية بالرباط

م : ملزمة.